مراجعة تحليلية لكتاب
جامعات التعليم عن بعد والجامعات التقليدية:

التوترات والتفاعلات
دراسة مقارنة لخمس دول

د. سفيان عبداللطيف كمال*

* نائب رئيس جامعة القدس المفتوحة للشؤون الأكاديمية

ملخص

يعرض الكتاب ويناقش نتائج دراسة مقارنة أجرتها البروفيسور سارة جوري - روزنبلت، لمعرفة العلاقات والتوترات بين جامعات التعليم عن بعد، والجامعات التقليدية في أنظمة التعليم العالي في خمس دول متقدمة هي: المملكة المتحدة وأسبانيا وألمانيا وكندا وإسرائيل. كما يعرض ويناقش التطورات التي طرأت على كل من خمس جامعات للتعليم عن بعد نشأت في أوائل السبعينيات من القرن العشرين في تلك الدول، وذلك خلال عقدين بعد نشأتها. ويبرز الكتاب أوجه الشبه والاختلاف بين هذه الجامعات فيما يتعلق بالنظم الإدارية والتمويل والنظم الأكاديمية والتبعية الحكومية أو الخاصة في ضوء البيئة الوطنية لكل منها. والجامعات المشار إليها هي: الجامعة البريطانية المفتوحة، والجامعة الإسبانية الوطنية للتعليم عن بعد، والجامعة الإسرائيلية المفتوحة، والجامعة الألمانية المفتوحة، وجامعة اثاباسكا الكندية.

ويستخلص من التحليلات المركزة والمتعمقة الواردة في الكتاب أن هناك سبعة اتجاهات ستفرض نفسها على الأهداف المستقبلية لجامعات التعليم عن بعد والجامعات التقليدية، وستكون بمثابة تحديات مشتركة لنوعي الجامعات.وهذه الاتجاهات هي:

١. تعدد فئات الطلبة الملتحقين بالجامعات ووجود أعداد كبيرة في كل فئة.
٢. تغير في أدوار المشرفين الأكاديميين (المحاضرين) سواء في التعليم أو الابحاث.
٣. مرونة كبيرة في المناهج الأكاديمية التي تقدمها الجامعات.
٤. استخدام التكنولوجيا الحديثة لإيصال المعرفة للطلبة وللتواصل مع معلميهم ومع زملائهم.
٥. تحديد تعاقدات جديدة بين الجامعات والمجتمعات المحيطة بها.
٦. تنامي التعاون بين الجامعات في إنتاج المواد التعليمية والأبحاث.
٧. عولمة التعليم العالي، أي أن العولمة ستغزو التعليم العالي وستؤثر فيه بشدة وتوجه كثيراً من أنشطته.

Abstract

The book under analytical revision discusses the results of a comparative study conducted by Professor Sara Guri- Rosenblit to determine the tensions and interactions between distance teaching and campus universities in each of five countries, namely: The United Kingdom, Spain, Germany, Canada and Israel. It also discusses the developments which happened to each of five distance teaching universities which were established in the early 1970's during the two decades following its establishment. The book points out the differences and similarities among these universities concerning administration, academic systems, financing, and affiliation in light of the national setting of each one of them. The universities under discussion are: The Open University in the UK, the Spanish Universidad Nacional de Educacion a Distancia, the Fern Universitat in Germany, Athabasca University in Canada and the Open University of Israel.

Deep analysis of the contents of the book under revision revealed seven trends which are likely to feature in the future agendas of distance and campus universities.These features are:

1. ***Broader and more diverse student clienteles.***
2. ***Changing roles of the academic faculty in teaching and research.***
3. ***Flexible academic curricula to serve lifelong education.***
4. ***Heavy use of new delivery and communication technologies.***
5. ***Defining new contracts between universities and their surrounding societies.***
6. ***Growth of inter-institutional collaboration.***
7. ***Globalization of higher education.***

مقدمة

لعل أهم سبب يكمن وراء ظهور التعلم عن بعد وانتشاره، هو الحاجة الماسة إلى توفير فرص التعليم العالي للجماهير بهدف المسارعة في عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية، ونشر الديمقراطية في المجتمعات، بحيث تفتح أبواب هذا المستوى من التعليم لكل راغب فيه وقادر عليه عقلياً ومعرفياً. وفي كثير من الأحيان كانت الحكومات وراء قيام جامعات التعليم عن بعد (الجامعات المفتوحة) بسبب إدراكها عدم قدرتها على توفير مقاعد في الجامعات التقليدية عالية التكلفة لأعداد كبيرة من مواطنيها. ومما شجع الحكومات على المضي قدماً في هذا السبيل، القناعات التي تولدت من النظريات والأبحاث ومن الواقع العملي، أن التعليم عن بعد قادر على إحداث تعلم جيد النوعية وبتكلفة أقل من تكلفة التعليم في الجامعات التقليدية، وخاصة بعد أن توافرت تقانات متنوعة تساعد على توظيف هذا النمط التعليمي، وتشجعه.

وقد بادرت حكومات كثيرة إلى انشاء جامعات التعليم عن بعد دون استشارة القطاع الخاص للتعليم العالي، ودون التنسيق مع الجامعات النظامية/ التقليدية القائمة. وقد رأت الجامعات التقليدية في الجامعات المفتوحة منافساً لها فعارضتها منذ البداية ونأت بنفسها عنها، بل حاول كثير من العاملين في القطاع الخاص للتعليم العالي الإقلال من شأنها وإضفاء نظرة دونية على إنتاجها. ولكن الجامعات المفتوحة أثبتت جدواها، وأظهرت أنها نمط تعليمي فعال قادر على خدمة الجماهير وإشباع حاجاتهم.

وقد أدت الزيادة الهائلة في أعداد الملتحقين بالتعليم العالي، وظهور التكنولوجيا المتقدمة خلال التسعينات من القرن العشرين إلى إحداث ضغوط وحوافز على الجامعات المفتوحة والجامعات التقليدية للنظر في أحوالها وفي العلاقات بينها، وإحداث التغيرات اللازمة في ضوء الواقع. لقد أصبح سوق التعليم العالي خلال التسعينيات من القرن الماضي تنافسياً ودولياً (Competitive and International). وأدركت الجامعات أن حاجتها إلى تغيير وتعديل نفسها لمواءمة حاجات التعليم العالي في القرن الحادي والعشرين أمر مصيري بالنسبة لوجودها. وكما قال رايدر رول Reider Roll الأمين العام للمجلس الدولي للتعليم عن بعد " أنه لمن الخطر أن تتمسك المؤسسات بطرق قديمة عفا عليها الزمن لصنع الأشياء. وهذا يصدق ليس على الشركات الكبرى والمنظمات العسكرية فقط، ولكن على الجامعات المفتوحة والتقليدية أيضاً ". (رول، ١٩٩٥، ١٤).

وتعدُّ جورى – روزنبلت خبيرة في التطور التاريخي للجامعات، كما تُعدُّ أفضل من كتب في نظام التعليم عن بعد ومبرراته ونقاط القوة والضعف فيه. وقد عاشت عن قرب مراحل نشأة الجامعات المفتوحة في السبعينات من القرن الماضي وارتقائها خلال الثمانينات والتسعينات، وساهمت فيها بنشاط ملحوظ حسدها كثيرون عليه كمحاضرة وباحثة وإدارية.

وفي الدراسة التي قامت بها عن الجامعات المفتوحة والتقليدية في خمس دول، توصلت بشكل عام إلى أن العلاقات بين الجامعات المفتوحة من جهة، والجامعات التقليدية من جهة أخرى في كل من الدول الخمس قد تطورت عبر السنين من تشاؤم الجامعات التقليدية من المفتوحة خلال السبعينات، إلى تعاون متزايد خلال التسعينات. كما توصلت إلى أن الحدود الفاصلة بين التعليم العالي عن بعد والتعليم العالي التقليدي تصبح غير واضحة مع مرور الزمن، أي أنها تخف تدريجياً، وان هذا التوجه قد يتزايد خلال العقدين القادمين.

وكتابها " جامعات التعليم عن بعد والجامعات التقليدية: التوترات والتفاعلات – دراسة مقارنه لخمس دول" ، الذي جسد الدراسة التي قامت بها للجامعات المفتوحة والتقليدية في خمس دول، هو بدون شك مطلب الشخص الذي يريد أن يعرف ما سيكون عليه التعليم العالي في العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين. أن الأدبيات المتعلقة بالتعليم العالي المتراكمة حتى الآن كثيرة ومذهلة وأنها لفرصة ثمينة أن يعثر المرء على كتاب كهذا يلخص هذه الأدبيات ويعلق عليها ويستقرئ منها ملامح مستقبل هذا المستوى من التعليم.

وتهدف هذه المراجعة التحليلية لهذا الكتاب إلى ابراز الاتجاهات المستقبلية (ملامح المستقبل) للتعليم العالي على حلباته المختلفة سواء كانت في جامعات مفتوحة أو في جامعات تقليدية. ولا تهدف هذه المراجعة الى تلخيص الكتاب او اعطاء معلومات اخبارية عن كل من الجامعات المفتوحة الداخلة في الدراسة التي قامت بها المؤلفة. فالمهم في نظر المراجع هو مساعدة العاملين في التعليم العالي على الإجابة عن السؤال " التعلم المفتوح والتعليم عن بعد: الى أين " .

أهداف الكتاب ودوافع تأليفه

بدأت الكاتبة جوري - روزنبلت دراستها التي أصبحت كتاباً مهماً بهدف عام هو فهم الأدوار الوظيفية لجامعات التعليم عن بعد (الجامعات المفتوحة) Distance Teaching Universities ومتابعة أثرها على نظم التعليم العالي في الأوطان التي تنتمي إليها، ومعرفة طبيعة العلاقات والترابطات بين هذه الجامعة والجامعات التقليدية التي تتميز بوجود حرم جامعي تنفّذ عليه الغالبية العظمى من أنشطتها (Campus Universities).

ورغم المعارف الغنية والخبرات الواسعة التي كانت تمتلكها الكاتبة عن مجال التعليم عن بعد ومؤسساته وعن التعليم العالي بشكل عام، وجدت أن هناك عدداً من الأسئلة المتعلقة بهذا المجال لا تملك لها إجابات شافية. وشعرت أن من الواجب الاستمرار في البحث والدراسة لإيجاد الأجوبة المطلوبة لها. ومن أهم تلك الأسئلة ما يلي:

١. هل كانت الجامعات المفتوحة ابتداعاً رئيساً، (major innovation) في مجال التعليم العالي في السبعينيات من القرن الماضي في البلدان التي أقيمت فيها، أم أنها كانت مجرد واحدة من عدة خطوات إصلاحية هدفت إلى معالجة مشكلات قائمةً مثل ضرورة زيادة فرص الالتحاق بالتعليم العالي وتخفيض كلفة التعليم العالي على الطالب؟.

٢. ما الخلفية التاريخية والسياسية والاجتماعية الواسعة لإنشاء الجامعات المفتوحة في الدول المختلفة؟

٣. إلى أي مدى تختلف الجامعات المفتوحة عن الجامعات التقليدية في كل دولة (من الدولة المشمولة في الدراسة)، وإلى أي مدى تتشابه؟.

٤. ما طبيعة العلاقات التي أقيمت بين الجامعات المفتوحة ونظيراتها الجامعات التقليدية منذ بداية السبعينيات وحتى نهاية التسعينيات من القرن العشرين؟.

٥. كيف يمكن تعريف وتحديد المكانة الأكاديمية (Academic Status) للجامعات المفتوحة في كل بلد؟

٦. ما أهم الاختلافات بين الجامعات المفتوحة العاملة في بيئات ومواطن مختلفة؟ أي ما آثار العوامل الخاصة بكل وطن على تطور الجامعات المفتوحة القائمة فيه؟ ويشير هذا السؤال إلى أن الكاتبة ترى أن مراقبة التطورات الوطنية الخاصة بكل بلد Individual (National Evolutions) لا تقل أهمية عن مراقبة عناصر الشبه والتوافق بالنسبة للجامعات التي تعمل ضمن اطار التعليم عن بعد وفلسفته.

لقد أبرزت أدبيات التعليم عن بعد التي ظهرت خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين الخصائص العامة للجامعات المفتوحة للتأكيد على كونها مؤسسات جديدة بالمقارنة مع الجامعات التقليدية ومع المزودين السابقين للتعليم عن بعد Distance Teaching (Providers)، وللتأكيد أيضاً على أن التعليم عن بعد يستحق أن يكون نمطاً مميزاً وحقلاً خاصاً للبحث والدراسة. ولكن التطورات التي رافقت ظهور الجامعات المفتوحة والخصائص التي تميزت بها في مجتمعاتها بالمقارنة مع الجامعات التقليدية في كل مجتمع لم تكن مذكورة في أدبيات التعليم عن بعد. ولسد هذا الفراغ قامت الكاتبة بدراسة الأدب المقارن (Comparative Literature) المتعلق بشؤون التعليم العالي وأنظمته، فوجدت فيه اجابات عديدة للأسئلة المذكورة أعلاه، ولكنها ذهلت من الفروقات الكبيرة فيما يتعلق بوصف الجامعات المفتوحة في

هذا النوع من الأدبيات، أي أن أدبيات التعليم العالي عن بعد وأدبيات التعليم العالي العام لم تتفق في نظرتها للجامعات المفتوحة وأدوارها ومكانتها. فبينما اعتبرت أدبيات التعليم عن بعد أن الجامعات المفتوحة أهم تطور في التعليم العالي منذ القرون الوسطى، وأنها المعابد الجديدة للتعليم، وأنها التحدي الأساس لمفهوم الجامعة التقليدية، تبين أن الأدبيات العامة للتعليم العالي قليلاً ما كانت تشير إلى أهمية الجامعات المفتوحة. وإذا أشارت لها فكانت تذكرها على أنها تطورات هامشية أو مؤسسات لها مهام خاصة خارج نطاق الجامعات التقليدية.

ورأت الكاتبة جوري – روزنبلت أن الطريقة الوحيدة لفهم رسالة الجامعات المفتوحة، وإبراز دورها في البيئات الوطنية المختلفة وعلى الساحة الدولية هو تحليل عملياتها في السياق العريض للتعليم العالي في البلدان التي تعمل فيها. فقامت بدراسة معمقة للكتب والمقالات والأبحاث ذات العلاقة، حاولت خلالها إجراء ربط (Synthesis) بين أدبيات التعليم العالي وأدبيات التعليم عن بعد كي تحصل على تمثيل متوازن للمكانة الأكاديمية للجامعات المفتوحة ولأدوارها الخاصة في كل بلد. و الكتاب الذي نخضعه للمراجعة يتكون من النتائج والخلاصات لهذه الدراسة.

محددات الدراسة الواردة في الكتاب

ركزت جوري – روزنبلت في دراستها التي كونت الجسم الرئيس لكتابها هذا على جامعة

التعليم عن بعد (الجامعة المفتوحة) وحيدة الصفة (Single - Mode)، أي التي تطبق فقط نظام التعليم عن بعد، وأدخلت إلى التعليم العالي نوعاً جديداً من الجامعات يختلف عن الجامعات التقليدية المألوفة و يختلف عن مؤسسات التعليم بالمراسلة. أي أن الجامعات مزدوجة الصفة (dual-mode) لم تدخل في الدراسة. ومن بين جامعات التعليم عن بعد اختارت جامعات أنشئت في أوائل السبعينيات من القرن الماضي. أي أنها استبعدت من دراستها الجامعات التي أنشئت بعد الثمانينيات. فالمؤلفة -إذن- ركزت على تتبع مسارات وتطورات جامعات مفتوحة أسست في الفترة ذاتها من القرن الماضي، ولكنها اتجهت وجهات مختلفة بحكم وجودها في بيئات مختلفة. وحددت الجامعات التي تفحصتها في الدراسة بخمس هـي: الجامعة البريطانية المفتوحة والجامعة الإسبانية للتعليم عن بعد والجامعة الإسرائيلية المفتوحة والجامعة الألمانية المفتوحة وجامعة أثاباسكا الكندية المفتوحة، وكلها بدأت عملها في أوائل السبعينيات من القرن العشرين.

ورغم التشابه الكبير بين تلك الجامعات فإن بينها فوارق كبيرة أيضاً تجعل المقارنات بينها مفيدة وممتعة. فبعضها جامعات وطنية، أي تعمل على مستوى وطن كامل، وبعضها خاص بمناطق، وبعضها جامعات ضخمة في عدد دارسيها (mega universities) وبعضها جامعات صغيرة، وبعضها يقدم درجات علمية من البكالوريوس إلى الدكتوراة بينما يركز بعضها الآخر فقط على مرحلة البكالوريوس، وبعضها يدرس بأربع لغات وبعضها بلغة واحدة. وقد تأثر كل منها بعمق بتراث أكاديمي وطني (national academic culture) يختلف عما تأثرت به الجامعات المفتوحة الأخرى.

المحتويات الرئيسة للكتاب

يتكون الكتاب من ثمانية فصول، وفيما يلي أهم الأسئلة التي يجيب عنها كل فصل:

الفصل الأول: فكرة جامعة التعليم عن بعد (الجامعة المفتوحة)

ما الخصائص الرئيسة للجامعات المفتوحة؟ إلى أي مدى ابتعدت الجامعات المفتوحة التي أقيمت في أوائل السبعينيات عـن مبادئ المؤسسـات التربوية التي كانت تتبع نظام المراسـلة(correspondence institutions)؟ إلى أي مدى شكلت الجامعات المفتوحة المشار إليها تحديا لمبادئ وممارسات الجامعات التقليدية الراسـخة الأسس، والمعتمدة علـى نظـام الحرم الجامعي (campus universities)؟. ما الخلفية الاجتماعية - السياسية لكل

من الجامعات المفتوحة الخاضعة للدراسة؟ . ما الأهداف الاجتماعية والأكاديمية التي كان ينتظر من كل من هذه الجامعات المفتوحة أن تحققها؟ .

الفصل الثاني: جامعات التعليم عن بعد في بيئاتها الوطنية

ما الفرق بين التعليم المفتوح والتعليم عن بعد؟ في أي المجالات تختلف الجامعات المفتوحة الخمس عن بعضها؟ إلى أي درجة تعدُّ كل جامعة مفتوحة جامعة مبتكرة ومجددة (innovative) في بيئتها الوطنية (milieu national)؟ وكيف يؤثر إبداع كل منها على علاقتها مع الجامعات التقليدية العاملة في البلد نفسه؟

(وقد أجابت المؤلفة عن السؤالين الثاني والثالث بالنسبة لثمانية مجالات منها متطلبات الالتحاق والتخرج واستعمال وسائط التواصل الجماهيري) .

الفصل الثالث: الدارسون والهيئات التدريسية

إلى أي مدى تختلف صفات الدارسين والهيئة الأكاديمية ودورها في كل من الجامعات المفتوحة الخمس التي خضعت للدراسة عن صفات الدارسين والهيئات الأكاديمية وأدوارها في الجامعات التقليدية؟ ما مضامين توزيع المسؤوليات التعليمية بين أطراف عدة في الجامعات المفتوحة على طبيعة العمليات التعليمية / التعلمية فيها؟ كيف يؤثر غياب جو الحرم الجامعي وقلة تفاعل الدارسين مع بعضهم على نوعية الخبرات الأكاديمية التي يمرون بها؟ ما أسباب نسبة الانسحاب المرتفعة في الجامعات المفتوحة (drop- outs)؟ كيف يمكن معالجة خطر احتمال تحول عملية التعليم في الجامعات المفتوحة إلى تلقين باستعمال وسائط التعليم عن بعد؟ ما أنواع أنظمة دعم التعلم الموجودة في الجامعات المفتوحة (learning support systems) وما وظائفها؟

الفصل الرابع: المناهج الأكاديمية

ما حقول الدراسة التي اختارت كل جامعة مفتوحة التركيز عليها؟ إلى أي مدى تختلف مناهج الجامعات المفتوحة عن بعضها بعضا وعن الجامعات التقليدية الكلاسيكية؟ ما أنواع الدرجات والدبلومات العلمية التي تقدمها أو تطرحها الجامعات المفتوحة؟ هل الجامعات المفتوحة أكثر توجهاً نحو تلبية حاجات الأسواق نحو التدريب الوظيفي (professional

(training؟ هل هنالك موضوعات معينة يمكن تعليمها بصورة أسهل من خلال طرق وأساليب التعليم عن بعد؟ ما ابعاد الانفتاح والانغلاق التي تتسم بها البرامج الأكاديمية لمختلف الجامعات المفتوحة؟ .

الفصل الخامس: التكنولوجيا في خدمة جامعات التعليم عن بعد

ما الصفات الفريدة للتقانات المتنوعة ((varying technologiesالتي يستعملها مزودو خدمات التعليم عن بعد لإنتاج المواد التعليمية وايصالها للدارسين؟ ما أنواع التقانات المستعملة لأغراض التواصل التفاعلي؟ كيف ستؤثر تقانات الحاسوب المتقدمة على تصميم وتطوير المناهج الأكاديمية وأساليب دراستها ذاتياً في الجامعات المفتوحة؟ إلى أي مدى ستؤثر وسائط تكنولوجيا المعلومات والاتصالات التفاعلية من الجيل الثالث على عمليات التعليم والتعلم في الجامعات المفتوحة التقليدية؟ كيف ستؤثر تقانات المعلومات والاتصالات الحديثة على العلاقات بين الجامعات المفتوحة والجامعات التقليدية؟ ما المعايير الرئيسة لاختيار مزيج متوازن من وسائط التعليم بحيث ينتج هذا المزيج أفضل الدعم للدارس في نظام التعليم عن بعد؟

الفصل السادس: الإدارة والتمويل والتنظيم:

إلى أي مدى تختلف الأجهزة الإدارية والتنفيذية في الجامعات المفتوحة عنها في الجامعات التقليدية؟ كيف تنظم القاعدة المالية للجامعات المفتوحة؟ وما جوانب اختلاف عمليات تمويلها عن تمويل الجامعات التقليدية؟ إلى أي مدى تحقّق الجامعات المفتوحة وفورات نتيجة اقتصاديات الانتاج الكبير (economies of scale)؟ ما العلاقات الموجودة بين الإدارة العامة من جهة والمناطق التعليمية والمراكز الدراسية من جهة أخرى في كل من الجامعات المفتوحة الخمس الخاضعة للدراسة؟

الفصل السابع: جامعات التعليم عن بعد والجامعات التقليدية: التشاؤم والتعاون والتنافس:

ما نوع الطريق الذي اختارته كل جامعة مفتوحة في التعامل مع الجامعات التقليدية في البيئة الوطنية التي تعمل فيها؟ ما الأسباب الرئيسة للانتقادات ومشاعر العداء التي وجهت للجامعات المفتوحة في السبعينيات من القرن العشرين؟ ما مجالات التعاون بين الجامعات

المفتوحة والتقليدية؟ ما آثار عدم وضوح الفواصل بين الجامعات المفتوحة والتقليدية وتنامي التنافس بين هذين النوعين من الجامعات على العلاقات المستقبلية بينهما؟

الفصل الثامن: دروس من الماضي واتجاهات للمستقبل:

ما العبر والنتائج التي يمكن أن يستنتجها الإداريون والأكاديميون وصانعو القرار في التعليم العالي من خبرة الجامعات المفتوحة فيما يتعلق برسم السياسة والتسيير الفعلي لمؤسسات التعليم العالي الأخرى؟ في أي المجالات يمكن اعتبار الجامعة المفتوحة واضعة اتجاهات وراسمة طرق في التعليم الحالي والمستقبلي؟ .

ما السيناريوهات المنتظرة في المستقبل للتعليم العالي عن بعد وبخاصة الجامعي منه؟ إلى أي مدى ستؤثر العولمة وتوجهات التشبيك الدولية international networking (trends) على تطورات التعليم العالي عن بعد وعلى التعليم العالي الجماهيري بشكل عام؟ ما الخطوط الإرشادية الرئيسة المستخلصة من تجارب الجامعات المفتوحة القديمة والتي يجب أخذها بالحسبان ينبغي الانتفاع بها عند إقامة جامعة مفتوحة جديدة في المستقبل؟ هل يكفي أخذ حاجات المتعلمين بالحسبان عند الرغبة في تأسيس جامعة للتعليم عن بعد؟ إلى أي درجة يجب أن تؤخذ الأعراف والمعايير القائمة في النظم الوطنية للتعليم العالي العام بالحسبان وخاصة فيما يتعلق بالانفتاح (Openness)؟ .

تحليل أولي لمحتويات الكتاب

لقد نمت نظم التعليم عن بعد، كما أشرنا في مكان سابق في هذه المراجعة، بسبب رغبة الحكومات في توفير تعليم عال جيد النوعية وقليل التكلفة (effective-Cost) بالإضافة إلى الرغبة في مساعدة الجماهير الواسعة وإعطائها فرصاً كثيرة لتتقدم وتطور نفسها علمياً ومادياً. وقد ازداد الطلب عن العرض في مجال التعليم العالي خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين في دول أوروبا وفي غيرها من دول العالم، سواء من طرف أولئك الراغبين في الالتحاق لأول مرة بالجامعات والحصول على درجات جامعية، أو من طرف أولئك الراغبين في تطوير قدراتهم وكفاياتهم بزيادة ما حصلوا عليه في الماضي من تعليم عال. وجاء الطلب بخاصة من طرف أناس لا يستطيعون الدوام في الجامعات التقليدية أو أنهم يريدون دراسة جزئية لأن عملهم أو أوضاعهم الاجتماعية لا تمكنهم من الدوام النظامي

المعتاد. فكيف تمت تلبية رغبات أولئك الناس؟ وما طبيعة الخدمات التعليمية التي فتحت أمامهم الطريق إلى مستقبل أفضل؟.

ناقشت جوري- روزنبلت بالتفصيل الأنواع المختلفة من طرق التعليم عن بعد وأساليبه وتقنياته التي استعملت في خمس جامعات للتعليم عن بعد معتبرة أن كلاً من هذه الجامعات تمثل نظاماً للتعليم عن بعد، لكونها قائمة في بيئة تختلف عن بيئات الأخريات وهذه الأنظمة هي:

١. الجامعة الأسبانية الوطنية للتعليم عن بعد (أسبانيا).

The Spanish Universidad Nacional de Educacion a Distancia (Spain)

٢. فيرن يونيفرستات (ألمانيا).

The Fern Universitat in Germany (Germany)

٣. الجامعة البريطانية المفتوحة (بريطانيا).

The British Open University (Britain.

٤. الجامعة الإسرائيلية المفتوحة (إسرائيل).

The Open University of Israel (Israel).

٥. جامعة اثاباسكا (كندا).

Athabasca University (Canada).

واجتهدت جوري ــ روزنبلت في إيضاح الأنظمة والهياكل والمناحي المتنوعة الموجودة حالياً في هذه الجامعات فيما يتعلق بالتعليم عن بعد، مركزة ليس فقط على جوانب التشابه بينها، وإنما أيضاً على الفروق الملموسة. فالفروق بين البلدان في هذا المجال كثيرة، إذ إن كل نظام للتعليم عن بعد يجب أن يكتسب شرعية في بلده ويكون مناسباً لظروفها وأوضاعها. فالجامعة الوطنية للتعليم عن بعد في إسبانيا كانت جزءاً من عملية إصلاح شاملة للتعليم في ذلك البلد. والجامعة البريطانية المفتوحة، جريا مع اهتمام التقاليد الإنجليزية للتعليم العالي بالإشراف الأكاديمي على الدارس، حرصت أن يتضمن نظامها هذه الآلية التعليمية، مما جعلها أكثر الجامعات المفتوحة تكلفة رغم أن كلفة التعلم فيها بالنسبة للدارس الفرد تظل أقل من الكلفة في الجامعات البريطانية التقليدية.

إن نظرة سريعة على قائمة محتويات الكتاب تكشف مجموعة كبيرة من الموضوعات التي

جرى تحليلها ومقارنتها . فمن أنشطة الحكومات في تصميم ونشر التعليم عن بعد، إلى صفات الطلاب والمعلمين، إلى المناهج، إلى التمويل، إلى نجاعة التعليم عن بعد وجدواه وسلبياته . إن الكتاب مركز وملتزم بأهدافه التي سبق شرحها، ومليء بالأفكار والمناقشات الدسمة . ومن الواضح أنه قد وضع للقارئ المهتم بالموضوع الراغب في التعرف على أبعاده وتحليل قضاياه . ويلاحظ أن الترتيب الواضح والمنطقي لمواضيع الكتاب لا يمنع القارئ من أن يختار قراءة موضوع من هنا وآخر من هناك، ويتيح له التنقل بين الفصول دون أن يضطر لقراءة المادة كلها على التوالي .

لقد أعطت المؤلفة مكانة بارزة في كتابها لممارسات وطروحات الجامعة البريطانية المفتوحة، فهذه الجامعة، أو لنقل هذا النظام الرائد ما زال حتى الآن الأشهر بين أنظمة التعليم عن بعد . وكان ملهماً لأنظمة (جامعات) مفتوحة أخرى كثيرة منها على سبيل المثال جامعة انديرا غاندي في الهند وجامعة القدس المفتوحة في فلسطين . لقد كان نجاح الجامعة البريطانية باهراً وواضحاً، وكانت –وما زالت– بين أرقى الجامعات البريطانية من حيث نوعية التدريس فيها ومن حيث البحث العلمي، الأمر الذي يدل على أن بإمكان الجامعات المفتوحة أن تجتذب أفضل الباحثين والمدرسين . وقد ركزت الكاتبة على خاصية مهمة للجامعة البريطانية المفتوحة، وهي ان المراكز الدراسية للجامعة قد أثبتت أنها ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها لنجاح التعليم عن بعد .

لقد استعملت الجامعة البريطانية المفتوحة المدارس الصيفية والمختبرات والندوات بانتظام في مختلف أنظمة التعليم عن بعد . وقد أشار الدارسون في هذه الجامعة وغيرها من الجامعات المفتوحة مراراً وتكراراً إلى أن التدريس وجهاً لوجه ضروري لنجاح الجامعات المفتوحة وشعبيتها . وهذا صحيح حتى في الجامعة الافتراضية و في أيام الانترنت .

إن جوري ــ روزنبلت ترى أن هذه القضية مهمة، بل مركزية، وتحليلها لها يدل على إيمانها بأن وجود عنصر التدريس وجهاً لوجه في نظام التعليم عن بعد يجب أن يكون سياسة تحتذى . إن قدرة الجامعة المفتوحة أينما كانت، على تلبية حاجات إنسانية أساسية سيكون المحك لنحاجها كجامعة فاعلة، وتصلح لأن تكون بديلاً كاملاً للجامعة التقليدية . إنها ترى أن كون " التعليم خبرة إنسانية " أمراً لا يمكن تجاهله .

إن التعليم وجهاً لوجه هو شهادة حسن سلوك للجامعات التقليدية لما فيها من عناية فردية من جانب المعلمين للطلاب واهتمامات شخصية بهم، ولكنه أيضاً يعدّ في الجامعات المفتوحة

علامة مرونة وتجاوب مع حاجة إنسانية ملحة، وإذا ضم إلى الممارسات والأساليب الأخرى الفعالة لنظام التعليم عن بعد، فإنه يزيد من جدوى هذا النظام ويكسبه مزيداً من القبول والاحترام المجتمعي.

وتذكر جوري – روزنبلت أن المرونة (flexibility) هي صفة مميزة للجامعات المفتوحة، وتشيد بحرص معلمي هذه الجامعات على إبقاء التوجه " العملي الاستهلاكي " لديهم ممزوجاً بالرغبة في إبقاء نوعية أدائهم عالية. فهم مطالبون دائماً بأن يوازنوا بين توجهات السوق وسياسة الحكومة ورغبات الناس وبين المعايير الأكاديمية. وهذا يجعل الجامعات المفتوحة أشد حاجة إلى التخطيط المحكم والإدارة القوية من الجامعات التقليدية.

لقد أبدعت الجامعات المفتوحة في إنتاج المواد التعليمية من كتب ومجمعات تعليمية (رزم) modules وحقائب علمية بأسعار معقولة. كما أبدعت في عرض هذه المواد التعليمية مستخدمة تقانات قديمة وحديثة، من البريد العادي البسيط إلى الإذاعة ونقل المعلومات بالاتصالات عبر الفضائيات التي تبشر بتخفيض أسعار التعلم، وتوسيع المجالات التي تصل إليها الجامعات المفتوحة في أصقاع المعمورة.

إن هذا التطور في الوسائط التعليمية لا يعني، في رأي المؤلفة، نهاية المواد التعليمية المطبوعة. فالمؤلفة ترى أن هذه المواد ستظل مهمة، بل متفوقة أحياناً على غيرها من الوسائط. إن المواد التعليمية التي يمكن أن يتعامل معها المتعلم عندما يريد وكيفما يريد، أي موزعة على هواه (self-spaced) تعتبر مهمة جداً، ولذا يجب أن تصمم بعناية ودقة. إن الكتاب في الجامعة المفتوحة يكتسب أهمية خاصة، ففي رأي المؤلفة أن الكتاب في الواقع هو الجامعة كلها. وبناء على ذلك فهي ترى أن دور المشرف الأكاديمي قد تناقص، وترى أن تزايد أهمية الكتاب يستدعي اشتراك فريق في إعداده بحيث يركز كل من أعضاء الفريق على جانب. وهذا لا يعنى تقسيم المادة العلمية على عدد من المؤلفين، بل يعنى أن الفريق يجب أن يشتمل على معدين أكفاء للمواد العلمية، ومزودي وسائط مساندة ومصممين تعليميين، ومحررين لغويين، ومتخصصين في علم النفس التربوي لملاحظة عرض المادة وتسلسلها وغيرهم.

ويرى علماء المستقبل أن على الطالب أن يتعلم كيف يكتسب المعرفة ويفسر المعلومات بنفسه بدل استقبالها من المعلمين. وعموماً فعلى الرغم مما تلاقيه مركزية الكتاب في التعليم المفتوح من تأييد إلا أن كثيرين ما زالوا يخضعونها للمناقشة. وقد حاولت روزنبلت أن لا تنجر إلى هذه المناقشة، واكتفت بالإشارة إلى وجودها. وكان الأفضل لو قدمت رأيها في

هذا الموضوع لأهميته وخاصة في الجامعات المفتوحة التي تفتقر إلى التكنولوجيا الحديثة في وسائلها التعليمية .

والنقطة الأهم التي تثيرها جوري- روزنبلت هي أن التعليم عن بعد، كأسلوب ونمط له مقوماته الخاصة، يتطلب تعاوناً مكثفاً بين اجهزة الجامعة المفتوحة المختلفة مثل الأجهزة المسؤولة عن تأليف المواد التعليمية وإعدادها بأسلوب التعليم عن بعد وإصدارها، وأجهزة إنتاج الوسائط التعليمية المساندة وأجهزة التدريس وغير ذلك. غير أن هذا التعاون والترابط في العمل الأكاديمي وخاصة البحثي اصبح يتزايد بين الجامعات التقليدية أيضاً، فظاهرة العمل كفريق أو من خلال فريق أخذت تفرض نفسها. ولا تدعي جوري- روزنبلت أن عصر المعلم البطل قد انتهى، ولكنها تقول إن هناك كثيراً من الأساليب الأخرى للتعليم والتعلم.

للجامعات المفتوحة إيجابيات كثيرة فهي تعدّ قوة إضافية لنشر ديمقراطية التعليم العالي، فضلاً عن أشياء أخرى ليس أقلها تعويد الانسان على الاعتماد على الذات. ولكن هل هناك نقاط ضعف لهذه الجامعات؟ ان رزونبلت مدافعة متحمسة عن هذا المنهج من التعليم، ولكنها تعرف تماماً الصعوبات التي تواجهه.

وحيث أن حجم هذا النوع من الجامعات يتطلب إدارة مركزية محكمة نجدها تتبع الهيكلية الإدارية الهرمية وبالتالي تنزع إلى تطبيق مناهج متجانسة، لا تقدر فيها الحرية الأكاديمية بالمستوى نفسه الذي تقدر فيه في الجامعات التقليدية.

وهناك خطر حدوث نوع من الدكتاتورية الفكرية حيث تهمل رغبات الطالب الخاصة وحاجاته من أجل رغبات الجماهير وضغوطها. وقد تخفف تكنولوجيا التعلم التفاعلية من هذا الخطر، وتزود الطالب باتصالات كالتي توجد في أرقى الجامعات التقليدية، ولكن الجواب عن السؤال " ما عناصر التعليم الجيد في الجامعات المفتوحة؟ " غير معروف حتى الآن. وتعتمد الجامعات التقليدية العريقة على اسمها ومرافقها وشهرتها في اكتساب الاعتراف والمكانة واحترام السوق لشهاداتها، ولكن نمط دوام الدارسين في معظم الجامعات المفتوحة ونوعيتهم وحاجاتهم قد يجعل من الصعب قياس مدى قيمة هذه الجامعات في أعين الناس وفي أعين من يسيطرون على الأسواق ويقررون حاجاتها.

أن سهولة دخول الجامعات المفتوحة والنسبة العالية للانسحاب منها أمران مقلقان، وكذلك الأدوار المستقبلية للحكومات بالنسبة لهذه الجامعات مقلقة، حيث أن العمليات السياسية دائماً عرضة للتغيير، وبالتالي قد يؤثر ذلك على مصائر هذه الجامعات.

إن الجامعة " الحقة " نادرة في هذا العالم . فمعظم الجامعات متشعبة في تكوينها وتخاطب أنواعاً متعددة من المستفيدين، ولها أكثر من رسالة واحدة mission، والتعليم الافتراضي (الالكتروني) ليس قاصراً على الجامعات المفتوحة بل تعداها إلى الجامعات التقليدية التي أدركت جدواه وأخذت تطبقه في جوانب كثيرة من أنشطتها سعياً وراء زيادة دخولها . إن نجاح الجامعات المفتوحة والحماس لإمكانياتها المستقبلية، قد أدى إلى نوع من الانتقاد لها، ولكنه أيضاً أدى إلى محاولات تقليدها وتبنى الكثير من عناصر مرونتها .

تحليل متقدم لمحتويات الكتاب:
الاتجاهات المستقبلية لجامعات التعليم عن بعد

لقد ركزت المؤلفة جوري ـــ روزنبلت في كتابها بدرجة كبيرة على تفحص العلاقات والتوترات المعقدة والدقيقة الموجودة بين الجامعات المفتوحة والجامعات التقليدية، وعلى تحليل أثر كل نوع على الآخر . ومنفعة هذا التفحص لا تقتصر على العاملين في الجامعات المفتوحة، بل تتعداها إلى صانعي القرار في التعليم العالي بعامة، وإلى الأكاديميين والإداريين وصانعي القرار في الجامعات التقليدية أيضاً .

إن الجامعات المفتوحة تعدّ رائدة في المواجهة المبكرة للكثير من التحديات التي تواجه التعليم العالي حالياً مثل : تزويد الراشدين العاملين بفرص غنية للتعليم المستمر مدى الحياة، وتوفير برامج أكاديمية مرنة للدارسين الذين فاتتهم فرص التعليم الأكاديمي في ماضي حياتهم، و توفير برامج غنية لفئات متنوعة من الدارسين والقيام بتدريسهم بنجاح، واستخدام التقانات الحديثة في التعليم العالي، وتخفيض كلفة التعليم العالي على الدارس، وإحداث وفورات نتيجة الإنتاج الكبير في التعليم العالي (economies of scale)، وإدارة جامعات ضخمة في حجمها وعدد دارسيها، وإدارة عمليات ضخمة مكثفة للتدريس، والمساهمة في نشر التعاون الدولي في التعليم العالي، وغير ذلك . وقد وجدت أنه بعد مرور حوالي عقدين من الزمن من مواجهة الجامعات المفتوحة للتحديات المذكورة قامت جامعات تقليدية عديدة بالاهتمام الواضح بهذه التحديات . وقد أكدت روزنبلت نتيجة تحليلاتها أن الجامعات المفتوحة لا يمكن أن تكون ظاهرة هامشية في عالم التعليم العالي، بل مؤسسات مهمة حملت بشائر بنشوء اتجاهات مستقبلية قد يكون لها مضامين مهمة على تطورات الجامعات التقليدية . وفيما يلي أهم هذه الاتجاهات :

أولاً: تنوع فئات الدارسين الملتحقين بالجامعات

إن التزايد الهائل والمستمر في أعداد الطلاب الملتحقين بالجامعات يعدُّ أهم تطور حصل في أنظمة التعليم العالي منذ الستينيات من القرن العشرين. والتحول من جامعات النخبة (elite universities) إلى الجامعات المؤمنة بإعطاء الفرص المتساوية للقادرين على الالتحاق، كان السمة المميزة للتعليم العالي في جميع الدول المتقدمة وبعض الدول النامية خلال العقود الثلاثة الماضية. والقضيتان الأساسيتان اللتان شغلتا بال السياسيين والأكاديميين بالنسبة لتضخم الالتحاق بالتعليم العالي الخوف من تدهور المستويات الأكاديمية وارتفاع التكاليف.

إن الدروس المستفادة من العديد من الجامعات الضخمة، وبخاصة المفتوحة منها تشير إلى أن من الممكن الجمع بين سياسة مساواة فرص الالتحاق التي ينتج عنها قبول أعداد هائلة من الطلبة، وبين الإصرار على نوعية عالية من التعليم ومتطلبات عالية للتخرج، وفي نفس الوقت تخفيض التكلفة على الطالب الواحد. وللتوصل إلى هذا يجب أن توفر الجامعات تخطيطاً استراتيجياً قديراً (efficient) ونظم دعم فعالة لعملية التعليم. وبالإضافة إلى ذلك فإن التحاق أعداد متزايدة من الطلبة للتعليم العالي يعني أن صنوفاً مختلفة من الطلبة يدخلون بمؤهلات متنوعة ولهم حاجات وأهداف وميول غير متجانسة، الأمر الذي يرهق الجامعات ويصعب عليها الاستجابة لكل ما يترتب على الزيادة الهائلة في الأعداد. أنه لمن الواضح أن على الجامعات، سواء المفتوحة أو التقليدية، أن تضع على رأس اهتماماتها المستقبلية الحاجة إلى تصميم مناهج غنية كثيرة، وان تستخدم طرق تدريس متعددة لتتجاوب مع حاجات الطلبة صغار السن المختلفة إلى حد ما عن حاجات الطلاب الأكبر سنا. وتحديداً سيكون في الجامعات طلبة " الفرصة الأولى" مقابل طلبة " الفرصة الثانية "، وطلبة الدرجات الجامعية مقابل طلبة التعليم المستمر الذين يلتحقون لرفع الكفاية، والطلبة المحليون مقابل الطلبة الدوليين.

ثانياً: الأدوار المتغيرة للهيئات الأكاديمية

أحد الدروس الهامة المستفادة من خبرات كثير من الجامعات المفتوحة هو أن الأدوار المناطة بأعضاء هيئاتها الأكاديمية (المشرفون الأكاديميون) قد تغيرت لتناسب بيئاتها التعليمية/ التعلمية الجديدة والمختلفة عن البيئات التقليدية. لقد كانت الجامعات المفتوحة سباقة في إدراك هذه

الحقيقة . وبذلك ابرزت سمة ستميز أدوار أعضاء الهيئات الأكاديمية في جميع الجامعات في المستقبل . ومن أهم التغيرات المشار إليها في أدوار أعضاء الهيئات الأكاديمية ما يلي :

١ – على الأكاديميين أن يعتادوا على التعاون مع غيرهم من المهنيين والفنيين العاملين في الجامعة وخاصة في مجال تصميم المواد التعليمية وتنفيذ عملية التعليم . والعمل كفريق يتطلب أن يتنازل المحاضرون عن جزء من حريتهم الأكاديمية الغالية ، وان يمارسوا مهارات التفاعل والتواصل الاجتماعي . وبكلام آخر فإن مسؤولية التعليم الجامعي أصبحت موزعة بين أطراف عدة ، والمحاضرون هم أحد هذه الأطراف . إن استخدام التكنولوجيا التفاعلية الحديثة سيجبر الأكاديميين على أن يتعاونوا مع خبراء آخرين لتطوير مواد تعليمية عالية الجودة وخبراء لتوصيلها للمتعلمين بوسائط غنية متنوعة .

٢ – سيصبح المدرسون منظمين ومسهلين ووسطاء بين قواعد المعرفة (knowledge bases) والطلاب ، بدلاً من أن يكونوا الملقنين والمرسلين الرئيسيين للمعارف .

٣ – ستفرض البيئة التعليمية / التعلمية الجديدة على الأكاديميين أن يتحملوا مسؤوليات جديدة ، وأن يطوروا لأنفسهم مهارات وكفايات جديدة (قدرات) . أن ظهور التقانات الحديثة لتقديم المعرفة ووسائط الاتصال التفاعلية سيحول نشاطاتهم إلى حقول إضافية . ان التقانات الجديدة تتحدى بعمق تنظيم الحياة الأكاديمية . إذ سينتظر من المحاضرين أن يقودوا جلسات تعليمية بنمط المؤتمرات البعيدة بوساطة الحاسوب أو الفيديو أو القنوات السمعية ، وأن يصبحوا أكثر خبرة في مجال (desktop publishing) وتصميم برمجيات الحاسوب ووضع دروسهم على الشبكة العالمية (www) ، أو أن يقدموا محاضرات من خلال الفضائيات أو التلفزيون التعليمي (Bates . ١٩٩٥) . ومن الجدير بالذكر أن العديد من هذه المهارات سيكون مطلوباً في المستقبل المنظور من مدرسي الجامعات التقليدية أيضاً .

ثالثاً: مناهج أكاديمية مرنة

لقد أصبح " التعلم مدى الحياة " هذه الأيام الشعار السائد لمعظم مؤسسات التعليم العالي في العالم . وهذا المفهوم هو حجر الزاوية في مفهوم مجتمع التعلم (learning society) ، أي المجتمع الذي يشجع أفراده على استمرارية الدراسة والتعلم مهما كبر سنهم ، مما ينتج عنه إغناء النسيج الاجتماعي وتقويته وتدعيم المصلحة العامة .

والتعلم مدى الحياة يقوم معظمه على فكرة التعلم الجزئي (غير المتفرغ (part-time

المستمر طيلة العمر. والتعلم العالي الجزئي هو مفهوم ضروري من التعلم المستمر والمتكرر مدى الحياة، والتلاميذ الذين يتعلمون بشكل جزئي هم في الغالب أشخاص راشدون موظفون بشكل جزئي أو كلي أو أنهم مندمجون بالتزامات عائلية واجتماعية.

من الدروس المهمة التي نتجت عن خبرات الجامعة المفتوحة هو أنه من أجل نشر التعلم وتعميمه ودعمه مدى الحياة لا يكفي أن تلحق طلاباً بشكل جزئي في مناهج صممت أصلا لدراسة الدوام الكامل (full-time curricula)، وتمكينهم من قضاء وقت أطول في التفاعل مع هذه المناهج. أنه من أجل تعلم حقيقي مدى الحياة يجب تصميم " مناهج مرنة" تمكن الدارسين من ترك الدراسة متى أرادوا والعودة إليها متى أرادوا. كما يجب تصميم وحدات أكاديمية يمكن نقلها من جامعة إلى اخرى في الوطن الواحد، ومن جامعة إلى اخرى عبر العالم. ويجب أيضاً تصميم برامج دبلوم موادها على شكل مجمعات (رزم) تعليمية (modules) لا تتتابع مواضيعها بشكل خطي (non-linear) يعتمد الواحد منها تماماً على سابقه، وذلك جنباً إلى جنب مع مقررات دراسية إنعاشية في مختلف المجالات، وجعل هذه الدبلومات والمقررات متوافرة في أي وقت، وحسب رغبات الدارسين وحاجاتهم.

وخبرة الجامعات المفتوحة ابرزت الحاجة إلى إعادة التفكير بظاهرة الانسحاب -drop (out) من التعليم العالي وبالمعاني التي تعطى لها. أنه لمن الضروري التمييز بين الطلاب الذين يفشلون في دراستهم ويقررون تبعا لذلك الانسحاب، وبين الطلاب الناجحين الذين يقررون الانسحاب لأسباب شخصية أو وظيفية.

إن حقيقة انتشار " التعلم مدى الحياة" وتزايد أعداد الملتحقين بالجامعات ضمن إطاره (أي على أساس قصير المدى وليس للحصول على درجة علمية) تفرض إعادة النظر بتمويل الجامعات من طرف الحكومات أوغيرها إذا كان التمويل يعتمد على إحصاء أعداد الخريجين فقط. إذ هناك أنشطة علمية وثقافية كثيرة تجري في الجامعات المفتوحة خاصة لأناس لا يتخرجون بدرجات علمية، ويجب أخذ هذه الأنشطة في الحسبان عند اتخاذ الحكومات قرارها بالدعم المالي للجامعة.

رابعاً: تقانات التوصيل والاتصالات الحديثة

ان التقانات الحديثة تتحدى بعمق تنظيم الحياة الأكاديمية في الجامعات المفتوحة والجامعات التقليدية على السواء. لقد أثر تطبيق التكنولوجيا التفاعلية الحديثة على العلاقات بين الطلبة ومعلميهم وغير طبيعة المناهج الأكاديمية واسلوب الحصول على المعرفة وتكوينها أو توليدها.

لم يحن الوقت بعد للتنبؤ بكل الآثار التي يمكن لتكنولوجيا المعلومات الحديثة والتكنولوجيا التفاعلية أن تلقي بها على مؤسسات التعليم العالي، ولكن من الواضح رغم كل ذلك أن التكنولوجيا الحديثة يجب أن ينظر لها كوسيط للوصول إلى غايات، أو ناقلات (vehicles) للوصول إلى أهداف تربوية، وأنها ليست غايات بحد ذاتها.

إن احد الدروس المستفادة من تجارب الجامعات المفتوحة في هذا المجال هي أن أي تكنولوجيا جديدة يلزمها وقت طويل حتى تشق طريقها نحو التطبيق في النظام التربوي على نطاق واسع. واضافة لذلك فإن بعض التقانات يمكن أن تستخدم لأساليب تعليم معينة ولا تصلح للإستخدام في أساليب أخرى. فمثلاً، ان التلفاز التعليمي والمؤتمرات التي تعقد عبر الفضائيات أنسب لنقل المعلومات، ويمكن تشبيه دورها بإعطاء المحاضرات الصفية. بينما التواصل بواسطة الحاسوب يعدُّ مناسباً للتعلم التعاوني والحوارات بين الاشخاص (Bates, ١٩٩٥ , ١٩٩٧). وهكذا فإن من المهم أن يختار المعلم مزيجاً متوازناً من الوسائط المناسبة لكل موقف تعليمي.

خامساً: الجامعات والمجتمع

ان أي نقاش حول مستقبل التعليم العالي لا يمكن فصله عن النقاش حول المجتمع. ان حدود ما يمكن أن تحققة الجامعات، توضع إلى حد كبير عن طريق المجتمعات التي تعمل فيها هذه الجامعات. وًاذا كان الحوار بين الجامعات والمجتمع ضرورياً بشكل عام، فهو أمر لا مفر منه بالنسبة للجامعات المفتوحة والجامعات الجماهيرية كبيرة الحجم (mass universities) التي تتمثل رسالتها الرئيسية في تلبية الحاجات المجتمعية التي لم تهتم جامعات النخبة بتلبيتها. ان من الضروري أن تقوم السلطات المحلية والشركات الخاصة والمصانع بضم جهودها وقواها مع الجامعات لتحسين فرص التعلم مدى الحياة في كل مجال. ان الخبرة التي مرت بها بعض الجامعات المفتوحة وبعض الجامعات كبيرة الحجم في التعاون مع المجتمعات المحيطة بها بكافة مؤسساتها، كانت مفيدة لجميع الفرقاء ولا بد من زيادة حجم التعاون.

على الجامعات المفتوحة تحسين التعاون مع المجتمعات المحلية وتعزيزه، مستعينة بشبكة المراكز الدراسية التي تملكها في الوطن. وهي أقدر من غيرها على الاندماج بحياة المجتمع بفئاته المختلفة والتجاوب باستمرار مع حاجاته من خلال هذه المراكز. ان استئجار المراكز الدراسية بوعي واعطاءها حرية أكبر في التعامل مع البيئات التي توجد فيها سيمنحها بالتأكيد

قدرة كبيرة على التأثير في هذه البيئات وتطويرها .

سادساً: التعاون بين المؤسسات

وهناك اتجاه مستقبلي آخر سنجده في الجامعات المفتوحة والجامعات الكبيرة الأعداد هو تنامي التعاون بين المؤسسات ، وكذلك التعاون الدولي في إنتاج المناهج الأكاديمية . وسيجري تصميم مقررات دراسية وإنتاجها بتعاون بين عدة أطراف عدة . إن مثل هذا التعاون قد يؤدي إلى إنتاج مواد بنوعية أفضل ، وتؤدي إلى توفير التكاليف بسبب زيادة حجم الإنتاج . ويمكن للجامعات المفتوحة قيادة هذا الجهد التعاوني مع مزودين آخرين للتعليم عن بعد ومع الجامعات التقليدية ومع مؤسسات غير جامعية داخل الوطن وخارجه . إن نوعية المواد التعليمية ستكون ذات أهمية قصوى في سوق التعلم عن بعد حيث لا حدود لعدد المقررات الدراسية التي يمكن لاية مؤسسة طرحها .

لا شك أن تجارة عالمية ستظهر في مجال التعليم الأكاديمي والوظيفي في المستقبل عندما سيكون بإمكان المتعلمين الوصول لمقررات دراسية والمعلمين في أي موضوع يريدونه في أي مكان في العالم ، شريطة وجود من يدرسه . وكلما كانت البرامج الأكاديمية جيدة النوعية ، كلما كثرت أعداد من يرغبون الالتحاق بها وكلما تعاظمت فائدتها في سوق التعليم العالي التنافسي .

سابعاً: عولمة التعليم العالي

لقد بدأ تأثير السوق العالمي على الدور الدولي للتعليم العالي بالظهور بوضوح في أواخر القرن العشرين . وأصبحت الجامعات في مختلف أنحاء العالم مندمجة في نشاط محموم يهدف إلى اجتذاب طلاب من دول العالم المختلفة ، والدخول في شراكات مع مؤسسات أخرى لوضع مشاريع عالية النوعية ، وفي نشر وتعميم اتجاهات عالمية . الطلاب وأعضاء الهيئات التدريسية يجري نقلهم وتبادلهم بين الجامعات ، وكذا المناهج الإدارية ووكالات الاعتراف تقوم بسرعة بالاعتراف بالدراسة الأكاديمية السابقة ، والحكومات تقوم بتوقيع اتفاقيات تعاون في التعليم العالي . ان برنامج إراسمس Erasmus الأوروبي ، على سبيل المثال ، الذي يهدف إلى تحسين تبادل وتحريك الطلبة والمعلمين والبرامج الأكاديمية قد توسع بشكل كبير جداً خلال الثمانينيات . ففي خلال عشر سنوات ازداد عدد الطلبة المشاركين في أنشطته من (٣٠٠٠) إلى أكثر من (٢٠٠,٠٠٠) .

إن الجامعات المفتوحة بحكم طبيعة أنظمتها قادرة على الوصول إلى أطراف العالم، فعملها ليس قاصراً على حدود البلد الذي يحتضنها، ولذلك فليس مدهشاً ان العديد منها يعمل في كثير من الدول.

منذ عام ١٩٨٠ أنشئت روابط دولية وشبكات مهمة للتعليم عن بعد مثل المجلس الوطني للتعليم عن بعد ICDE والشبكة الأوروبية للتعليم عن بعد EDEN وكومنولث التعليم المفتوح COL ورابطة الجامعات الآسيوية المفتوحة AAOU. وقد شهد العالم في التسعينيات اندفاعاً نحو برامج ومشاريع تحتضنها عدة جامعات معاً Consortia، و شهد تعاوناً مكثفاً بين مزودي التعليم عن بعد.

ويمكن تفعيل الانتشار العالمي للجامعات المفتوحة على عدة مستويات تتراوح بين الوصول إلى طلاب (أفراد) بعيدين، إلى التعاون مع مؤسسات (جامعات، شركات تجارية أو صناعية وغير ذلك) محلية أو دولية، إلى إقامة مشاريع تعاونية مع الحكومات المحلية أو مع حكومات عدة. وفي سوق التعليم الدولي سيكون باستطاعة الطلاب الوصول إلى أية جامعة تسمح أنظمة الالتحاق بها قبول طلبة دوليين. وإن إقامة الاتفاقات بين المؤسسات الأكاديمية في القطر الواحد وبين الأقطار المختلفة سيكون مهماً جداً لتسهيل تنقل الطلبة.

لقد تنبأ رامبل Rumble (١٩٩٧) أن معظم الطلبة في المستقبل سيدرسون أثناء العمل، وبإمكانهم الاستمرار في الدراسة حتى لو انتقلوا من مكان إلى أخر لسهولة الحركة وسرعة الاتصالات التقانية في الوقت الحاضر، ويتوقعون بالطبع أن ينقلوا الساعات المعتمدة التي درسوها في مكان إلى المكان الجديد. وستصبح مسألة الاعتراف بالدراسة السابقة للطالب عندما يحل بجامعة جديدة قضية حساسة جداً. وبالنسبة للجامعات المفتوحة ستكون هذه القضية بالغة الأهمية.

ما يؤخذ على الكتاب

لعل أهم ما يؤخذ على كتاب البروفسور جوري – روزنبلت هذا أمران رئيسان همـــا:

١. لقد اقتصرت الدراسة التي بني عليها الكتاب على تفحص نشأة وتطور خمس جامعات في دول متقدمة. والمآخذ هنا على عدد الجامعات وطبيعة الدول التي نشأت فيها هذه الجامعات. فالمعروف أن في العالم اليوم قرابة ألف من المؤسسات التي تعمل في مجال التعليم المفتوح والتعليم عن بعد، منها الجامعات ومنها الوكالات ومنها المنظمات المتخصصة. ولكثير من هذه

الجامعات تجارب وخبرات تستحق التفحص لأخذ العبر والدروس منها، وبخاصة ما يقع منها في دول غير متقدمة. ولو اتسعت دراسة جوري – روزنبلت لتشمل جامعات أخرى تقع في دول العالم الثالث لكانت دراستها، وبالتالي كتابها، أغنى وأوفى وأقدر على خدمة الأهداف التي أرادت تحقيقها والأسئلة التي أرادت الإجابة عنها والتي وردت في بداية هذه المراجعة. ومن بين الجامعات التي أعنيها الجامعات التالية التي أوردها على سبيل المثال لا الحصر:

* جامعة انديرا غاندي التي أسست عام ١٩٨٥، وفيها حالياً أكثر من ربع مليون طالب.
* الجامعة الكورية الوطنية المفتوحة التي أسست عام ١٩٨١، وفيها حالياً أكثر من ربع مليون طالب.
* جامعة أناضولو التركية / الكلية المفتوحة التي أسست عام ١٩٨١، وفيها حالياً قرابة ستمائة ألف طالب.
* جامعة سوخوتاي التايلاندية التي أسست عام ١٩٧٩، وفيها حالياً قرابة مائتي ألف طالب.
* جامعة تكنيون جنوب أفريقيا التي أسست عام ١٩٨٠، وفيها حالياً قرابة ٥٦,٠٠٠ طالب.

٢. إن السبب الرئيس لنشوء التعليم المفتوح والتعليم عن بعد وتعاظمه خلال العقود الثلاثة الماضية، هو الحاجة إلى توفير التعليم العالي للجماهير بكلفة رخيصة نسبياً للمتعلمين وللحكومات التي تقيم الجامعات المفتوحة. وما زال هذا السبب قائماً وبخاصة في دول العالم الثالث، وأغلب الظن أنه سيظل كذلك لثلاثة عقود قادمة على الأقل. ومع أن الكتاب تضمن تحليلات دقيقة لواقع الجامعات الخمس التي أخضعت للمقارنة وللأدبيات الكثيرة المتعلقة بتطور الجامعات المفتوحة والتقليدية، وأورد من خلال ذلك كله استنتاجات ذكية عن مستقبل هذين النوعين من الجامعات، إلا أنه لم يعالج بدرجة كافية كيف ستنجح الحكومات والمؤسسات والمنظمات، وخاصة في دول العالم الثالث، في تلبية الحاجة الملحة التي ستظل أمام جماهير تلك الدولة فترة طويلة من الزمن كما أسلفنا. إن الاستنتاجات الواردة في الكتاب حول الاتجاهات المستقبلية للتعليم العالي بعامة قد تبعث في نفس القارئ شيئاً من عدم الراحة فيما يتعلق بحاجة العالم الثالث إلى الحفاظ على " فلسفة التعليم عن بعد ورسالته "، وكان حرياً بالمؤلفة ايلاء هذا الأمر العناية التي يستحقها من المناقشة، بحيث توضح بجلاء أثر الاستنتاجات المشار إليها على الجامعات المفتوحة والجامعات التقليدية في دول العالم الثالث.

المصادر المراجع:

اولاً – المراجع العربية:

١) بطرس البستاني : محيط المحيط ، مكتبة لبنان – بيروت ، ١٩٩٨ .

٢) جل داولي : علاوة لي منتخبات لغات عثمانية ، (قاموس عثماني –عثماني) ، المكتبة العمومية لإبراهيم صادر – بيروت .

٣) جيمس رد حاوص : توركجه – انكليزجه يكانه مكمل لغت كتابي ، كاجري ياينلاري (قاموس تركي (عثماني) – انجليزي – عربي) ، استانبول .

٤) حسن الباشا : الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار ، دار النهضة العربية – القاهرة .

٥) عارف العارف : المفصل في تاريخ القدس ، مكتبة الأندلس في القدس ، مطبعة المعارف – القدس .

٦) محمد موسى هنداوي : المعجم في اللغة الفارسية ، مكتبة الانجلو ودار مطابع الشعب – القاهرة .

٧) ناجي زين الدين المصرف : بدائع الخط العربي ، مكتبة النهضة – بغداد ، ودار القلم – بيروت .

٨) ناجي زين الدين المصرف : مصور الخط العربي ، منشورات مكتبة النهضة – بغداد ، ودار القلم – بيروت .

ثانياً – المراجع العربية:

1. Bates, A.w.(1997). Restructuring the university for technological change, A Key-note address at the " what kind of university?" international conference, June 1997, London.
2. Bates. A.w.(1995) , Technology. open learning and distance education . London: Routledge.
3. Roll.R. (1995). Forward. In : J. Tifflin and L. Rajasingham (eds), In search of the virtual class: Education in an information society , London: Routledge, pp. xi - xvi.
4. Rumble, G. (1997) . University's labour markets for the 21st century. A paper presented at the " what kind of university ?" international conference , June, 1997, London.